التصوف الاسلامى
رسالة للأخلاق والتسامى

للأستاذ طه عبد الباقى سرور

عن سعيد بن هشام قال : أتيت عائشة أم المؤمنين فقلت : أخبرينى عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : كان خلقه القرآن ، أما تقرأ قوله تعالى : « **وانك لعلى خلق عظيم** »

كان خلقه القرآن ، كلمة فيها نور ، وفيها الهام ، تصور لنا فى جلال شرق ، ولحن مبين ، أسمى ، وأكمل ، وأخلد ، ما يتصف به بشر مختار مصطفى ..

تصور لنا العلاقة الخالدة بين الرسالة والرسول ، بين القرآن ومن تنزل عليه القرآن ، بين أكمل الخلق وأكمل الرسالات ، بين النور والكتاب : « **لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** » .

كان الرسول صلوات الله عليه ، هو الصورة الآدمية ، لمعانى القرآن ، كان التفسير الحى لحقائق الفرقان ، كان المثل الكامل ، للنور المفاض . « **يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا** » .

كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، هو نقطة البداية التى تنبثق منها الدعوة ، كان المنارة المشعة التى يسير على نورها وهداها ، رجال اختارهم الله ليكونوا أصحابا لرسوله فى حياته ، وأصحابا لرسوله فى دعوته ..

ومن هنا كان شرط الايمان الأول ، أو شرط الايمان الكامل ، هو الحب لرسول الله ، يقول صلوات الله وسلامه عليه : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه وولده وأهله وماله والناس أجمعين » .

ثم التخلق بخلقه عليه السلام ، والاهتداء بهديه ، والسير على خطوه ونهجه ، يقول صلوات الله عليه : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » ويقول سبحانه وتعالى محرضا عباده على الاقتداء والتخلق بالانسان الكامل خاتم النبيين وسيد المرسلين : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » .

ولقد قام التصوف الاسلامى منذ يومه الأول على خطو رسول الله صلوات الله عليه ، متخذا منه اماما هاديا ، ومثلا أعلى يقتدى به ، فى معاملاته ومناجاته ، وعباداته ومجاهداته ، وأخلاقه وأشواقه .

ومن خلق الرسول - وهو القرآن - ومن حياته وصفاته - وهى الدعوة - ومن مناجاته وعباداته - وهى السلوك - كون التصوف الاسلامى اشراقاته وفتوحاته وعلومه وهديه ومنهجه ، وأخذ طابع تلك الحساسية الايمانية الصاعدة الى الله ، التى تميز بها وعرف .

يقول الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه : « اقتدوا بالذين من بعدى ، أبى بكر وعمر ، واهتدوا بهدى عمار ، وتمسكوا بعهد أبن عبد - ابن مسعود - » .

فجعل الرسول من ايمان الصديق ، ومن تقوى عمر ، ومن عهد ابن مسعود ، ومن هدى عمار ، نماذج صالحة يقتدى بها فى السلوك والمعاملة كما يقتدى بها فى الايمان والتقوى .

نماذج تقدم لنا صورا من الحساسية الايمانية الصوفية ، ومن مثالياتها الخلقية الصاعدة .

يشرب أبو بكر يوما لبنا من كسب عبده ، ثم يساله عن مصدره ، فيقول تكهنت لقوم فاعطونى ، فيدخل أبو بكر أصبعه فى فمه ، ويتقايأ ما فى جوفه حتى ظن أن نفسه ستخرج ، ثم قال : « اللهم انى أعتذر اليك ، مما حملت العروق وخالط الأمعاء !! »

ويرى عروة بن الزبير ، عمر بن الخطاب يحمل على عاتقه قربة ما ، فيقول يا أمير المؤمنين ما ينبغى هذا ؟ قال : « لما جاءتنى الوفود سامعين مطيعين . أعجبتنى نفسى ، فاردت أن أذلها » ، ثم مضى بالقربة الى أرملة بأطراف المدينة توفى زوجها ولا عائل لها ولا خادم .

وتنهال قريش بالعدوان الوحشى على عمار وآله ، فتمزق جسده بالسياط ، وتقتل أمه بالحراب ، وتصب العذاب على والده الشيخ الضعيف ، وعمار يهتف من أعماق قلبه : « كل عذاب فى سبيل الله يهون . اننا ننشد رضاء الله » .

ويقول ابن مسعود ، والمسلمون قلة فى مكة يتخاطفهم الناس ، والله لأسمعن قريشا اليوم ما تكره ، فيقعد فى مفترق الطرق الى الكعبة ويتلو آيات الله ، وتنهال عليه قريش ضربا وصفعا ، حتى يتمزق وجهه ، فاذا عاد الى الرسول قال : « يا رسول الله والذى بعثك بالحق ما كانت قريش أهون على مما كانت اليوم ، والله لأسمعنها غدا ما تكره ، ويحب الله .. »

قام التصوف الاسلامى على هذه النماذج العالية من الدين والخلق والفداء ، قام ليتجه بكل أعماله الى الله ، خالصة له « **الا لله الدين الخالص** »

جاء فى الحديث القدسى : « **انما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل على خلقى ، ولم يبت مصرا على معصيتى ، وقطع النهار فى**

ذكرى ، ورحم المساكين ، وابن السبيل والأرملة ورحم المصاب » .

قام التصوف ليستهدف ما وراء الآية القرآنية من خلق وايمان هما الهدف الكبير من الفريضة والعبادة ..

فالزكاة يصفيها الله بقوله سبحانه : « **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** » ، فالطهارة والتسامى ، هما الأصل والهدف لأنهما من عناوين الأخلاق .

والصيام يقول فيه الرسول عليه السلام : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس له حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

والحج : « الحج أشهر معلومات . فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » .. « وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى » . وروى مسلم فى صحيحه : « ثلاث من كن فيه فهو منافق وان صام وصلى وحج واعتمر ، وقال اننى مسلم . اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا أؤتمن خان »

على هذا النهج الايمانى ، قام التصوف ، دعوة للأخلاق وللتسامى وللعناية بالجوهر المضمر وراء ظاهر اللفظ .

قام على هدى الرسول ، والتخلق بخلقه ، والتأدب بآدابه ..

ولقد سئل الامام الجنيد عن أخلاق المتصوفة فقال : « أخلاقهم من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وسئل سهل بن عبد الله التسترى . فقال : « ليس منا من أغمض عين قلبه عن صورة نبيه » ، يعنى خلقه وعمله .

ويقول الحارث المحاسبى : « الصوفى . من حاسب نفسه على دقائق السنة وهدى الرسول وعزماته ، قبل أن يحاسبها على فرائض الكتاب » .

ويقول أبو على الدقاق : « الصوفية قوم تخلقوا بأخلاق نبيهم . ثم عاشوا فى سبيل الوفاء بحقها » .

وسئل الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، عن السر ، فى هذا الفتا الكامل فى المجاهدة والعبادة والذكر ، ومراقبة النفس ، ومحاسبة الجوارح ، وتحرى الدقائق . فقال : « لقد ذهب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرف الصحبة ، وأريد أن ألحق بهم ، حتى لا يستأثروا به من دوننا ، والله اننى آمل أن أزاحمهم عليه على الحوض » .

ويقول أبو الحسن الشاذلى : « والله لو غاب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين . لما عددت نفسى من المسلمين » .

ويقصد أبو الحسن رضى الله عنه : لو غابت عنه الصورة الروحية بمعانيها

وصفاتها وجلالها ، وأخلاقها وأنوارها .. فالصحبة الروحية للصـــوفية موصولة برسولهم ، وكل من سلك منهج الرسول ، فهو مع الرسول ، مع « **الـــذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا** » ..

ورسول الله صلوات الله وســـلامه عليه ، باق بدعوته ، وبأخـــلاقه ، والصوفية بحكم حبهم وفنائهم فى صفات رسولهم ، يكادون أن يشاهدوه فى معاملاتهم ومجاهداتهم ، وذكرهم ونجواهم .

يقول المستشرق نيكولسون : « ومن هنا كانت الصلة التى تربط أهل التصوف بمحمد صلى الله عليه وسلم أقوى وأكبر من تلك التى تربط أهل السنة به مهما كانت درجتهم فى التقوى ، ومهما عظمت محبتهم له ، لأن هؤلاء الأخيرين لا ينظـــرون اليه الا نظـــرتهم الى المثل الأعلى فى الدين والأخلاق ، وهم من أجل هذا يعظمونه ويوقرونه ، ولكن التعظيم والتوقير شىء ، والمحبة شىء آخر ، والمحبة بالمعنى الصوفى ، معناها فنـــاء المحب فى المحبوب .

ومن هذه الناحية ، يعتبر الصـــوفية أنفسهم خلفـــاء النبى والممثلين الشخصيين له فى خلافته عن الله » .

أجل ان رجال التصوف هم خلفاء رسول الله ، لأنهم تخلقوا بأخلاقه ، وتأدبوا بآدابه ، وعاشوا فى اشراقات دعوته ، وجلال رسالته .

وفى الحديث الصحيح أن النبى صلوات الله وسلامه عليه قال : « أنا حظكم بين الأنبيا ، وأنتم حظى بين الأمم » .

وأنه لنبأ عظيم للعالم الاسلامى . أن يكون رسول الله هو حظنا وشفيعنا وامامنا الآخذ بأيدينا الى سيادة الدنيا ورضوان الله .

وانا لنضرع لذى الجلال والاكرام ، أن يجعل الأمة الاسلامية فى ماضيها وحاضرها . اهلا لما أعدت له . أهلا لأن تكون حظ رســـول الله من بين سائر الأمم ..

« طه عبد الباقى سرور »